

الأربعون الاستانبولية

د. عبد الحكيم الأنيس

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري - دبي

هذه كلمات كتبتها في رحلتي هذا الصيف^١ إلى استانبول، بعضُها عنها، وبعضُها
مما كتبتُ هناك:

١: من أوراق مسافر

أقبل الليل يحتضن استانبول الحالمة.

وناغت النسمات أشجارها الساهمة.

ونزلت نجومٌ سماءها تتأمل نفسها المتلثثة في مرآة البسفور...

وسألتنِي: أين نجمُ القلوب (أحمد)..؟ لماذا لا أراه معك يمتّع عينيه الحلوتين
بشعاع صفائري المُرخاة على أكتاف الليل.. وأمتّع ناظري ببريق وجهه الطفوليّ
البريء؟

قلت لها: إنَّ أحمد ذهب متضامناً مع أطفال سورية وفلسطين والعراق واليمن
الذين رحلوا مبكرين...

حزنتُ نجومٌ استانبول ونزلتُ دموعها اللؤلؤية في أعماق البسفور...

١ سنة ١٤٣٦-٢٠١٥. وكنت قد فقدتُ ولدي الصغير «أحمد» في تلك السنة.

٢: رأيتُ في مكتب الأستاذ الجليل الدكتور أحمد طوران أرسلان عميد كلية العلوم الإسلامية في جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية في استانبول لوحة فيها شعراً بالتركية العثمانية ترجمه لي الصديقُ الفاضلُ الباحثُ المحققُ الدكتور علي بنلي عضو هيئة التدريس في جامعة مرمره، وهو:

(إذا تجلى الحقُّ يسهلُ كلَّ أمر، ويخلقُ أسبابه بلحظةٍ واحدةٍ، ويُحسِنُ).

٣: ورأيتُ لوحة جميلة معلقة على أحد جدران جامع شاه زاده في استانبول، وهو من هندسة المعمار سنان، في عهد السلطان سليمان القانوني، عليها:

(أدِّ فرائضَ الله تكن مطيعاً).

٤: ورأيتُ في جامع السلطان أحمد لوحة جميلة الخط عُلقَتْ فوق الباب فيراها كلُّ خارج ليتوجَّه من عبادةٍ إلى عبادةٍ:

(الكاسب حبيب الله).

وليُنظَر في أصل هذا القول ومستنده.

٥: أرسل إليَّ الأخ الأديب الأريب الشيخ محمد الأمين السملالي:

بوركتُم حيثما حلَّت رواحلكم	في الشرق والغرب، في تُركٍ وفي عربٍ
ودام عزُّكم والمجد في صُعدٍ	نشرًا لعلمٍ وسعيًا في جنى الكُتب
وصيَّتي أن تجسُّوا النبضَ ثمَّ لنا	عن موطيِّ لبحوثِ الدين والأدب
شغلًا يكون بعلمِ الدينِ مقترنًا	أو باللسانِ لسانِ الأمة العربي

٦: من مفكرة مسافر

زيارة المدن العتيقة يمنح قلبك طاقة إيجابية، ويضوِّخ روحك بعطر الجمال، ويفسح المضايق أمام نفسك المأسورة بسجن ضغوط الدنيا..

٧: هل تريد أن تبكي، وتبلى غليل نفسك الحزينة؟

أذهب إلى يني جامع (الجامع الجديد) وقت الغروب، واستمع إلى صوت المؤذّن هناك.. وانظر كيف ستسبح روحك في مياه استانبول الرائقة، وتطير أحاسيسك مع النوارس المُحلّقة في سماء البسفور..

٨: لا تخف من طوفان الرّوى والخواطر والذكريات في استانبول فأنت في سفينة الحاضر المشدودة بحبال الأّنس إلى شواطئ الأمان.

٩: المدن لا تكشف لك نفسها من أول مرة.

١٠: السير في مدينة قديمة، والتّملّي بجمال آثارها، والعيش ساعات في ذاكرتها، يعطيك أخيّلة جميلة ترمّم كثيرًا من خراب الواقع.

١١: من مؤلفات الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي، نزيل استانبول من سنة ١٢٩٤ إلى وفاته سنة ١٣٢٧هـ: (شؤون فروق) أي استانبول، ولكن أحد ناشري كتبه عدّ هذا خطأ، ورجّح أن يكون الصواب: الفاروق! فأبعد النجعة، ووعر الرجعة..

قال الشاعر عبد الحميد الرافعي في قصيدة يمدح قومًا (في ديوانه «الأفلاذ الزبرجدية» ص ٣٤):

نزلوا فرق فروق فغدا ثغرّها يبسم عن حالي البرد

١٢: -القهوة التركية جعلت استانبول حاضرة مع شاربها -أيما كانوا- كل صباح.. جميل أن يصنع الإنسان ذكريات تجعله حاضرًا في حياة الآخرين بنكهة تنعش مشاعرهم.

١٣: قالت لي استانبول: لو زرتني في عهد سليمان؟

فقلت لها: قد زرت قصره، وقبره، وصلّيت في جامعته، وتجوّلت في مجمعه، ورأيتك في تاريخه، ورأيت تاريخه فيك..

وسلام للخالدين.

١٤: للمدارس في استانبول تاريخ حافل، ولكنه لم يكتب بعد.

١٥: زيارة الآثار ضرورة لترميم خراب الروح، وسدّ شقوق النفس، وجريان دم القلب..

١٦: جرّب أن تعيش في مكانٍ جميلٍ مدة وانظر كيف ينعكس هذا على جمال نفسك ومعاملتك..

١٧: الذي يزور المدارس القديمة ويراهم من خارجها لا يتصوّر مدى جمالها الداخلي..

١٨: الحجّر يتحدّث، ولكنّ الإسمنت يلغو.

١٩: حلقتُ في تركيا عند حلاق سوري، وكان لديه طفلٌ سوريٌّ مستخدم، فقلت لمعلّمه (الحلاق): هل يذهبُ هذا إلى المدرسة؟

فقال: لا، ومثله كثير!

٢٠: لا تكتملُ زيارة استانبول إلا بزيارة مكباتها الخطية، ولاسيما السليمانية، ومكتبة بايزيد، وفيض الله أفندي.

٢١: يذهبُ السائحون العرب إلى مطاعم بلادهم، ولكنني أفضّل الدخول إلى المطاعم التركية..

طعامُ الناس جزءٌ من هويتهم وثقافتهم.. والأحسنُ للمسافر أن يكتشف المزيد من ذلك.

٢٢: نظافة الملاعق معيارُ نظافة المطبخ أو المطعم.

٢٣: رسالة إلى ولدي الراحل أحمد

أيها الطائرُ الجميلُ الذي حلّق في سماء ألمانيا

أتحسبُ أن جنان استانبول، ومتعة الأسفار، وبهجة الدنيا، تشغلني عنك؟

لا والله..

كيف شغلي بلذةٍ عنكَ واللد
أرى ظلكَ في (حدائقِ يلدز)..
وأشُمُّ رائحتك في ردهات (دولمه باعجة)..
ويداعبُ وجهي نسيْمُكَ في (طوب قابي)..
وأتحسُّ مكانك في مراكب (اليسفور)..
وأفتقدك في صفوفِ الساجدين في (الجامع الأزرق)..
وفي حشودِ الوافدين على (الفتاح)..
وأنتظرُك كما يُنتظرُ محبوبٌ في أعالي (چاملجِه)..
أيها الغائبُ الحاضرُ: سلامٌ عليك..

٢٤: وصل إليَّ دعاءٌ فيه هذه الجملة: (اللهم ارزقنا وإياكم البركة). وهذه الجملة لا أراها سائغة؛ لأنها تعني: (يا رب ارزقنا وإياكم) فعاد ضمير (إياكم) على الله! والصواب: اللهم ارزقنا وإياهم. أو رزقنا الله وإياكم.

٢٥: للكتاب قصة حياة كما للإنسان، ولو كان للكتاب لسانٌ يملي، وقلمٌ يدوّن كما يفعل الإنسان لرأينا قصصًا معجبة، وأخبارًا مستغربة، وسيرًا مشجية ومطربة.

٢٦: أن يُنسبَ إلى مؤلّف كتاب أو كتابان أو ثلاثة ليست له فهو معتادٌ مُستساغ.. أما أن ينسب إلى مؤلّف خمسون كتابًا ليست له فذاك أمرٌ يدعو إلى التوقُّف والتأمُّل والدراسة!

٢٧: أرسلتُ الكلمة السابقة إلى إخوةٍ وأصحابٍ وأصدقاء، فكتب إليَّ أحدهم قائلاً: أنت إمامٌ في التبّع! فكتبتُ إليه:

إمامتنا عجائبُ ذي الليالي وأين البقلُ من نخلٍ طوال!

- ٢٨: الكذبُ قبيحٌ وهو من المشايخ أقبح.
والغدرُ بشعٌ وهو من التلاميذ أبشع.
والتلؤُّنُ سييءٌ وهو من الأصحاب أسوأ.
- ٢٩: قال لي مقيمٌ في الغرب: بعض المسلمين في أوروبا تكرهُهم الأرضُ التي يمشون عليها!
- ٣٠: يا مسلمون: أوقفوا عارَ هجرة السوريين إلى الغرب.
- ٣١: أشعرُ بحسن الحياة حين أقول لمحسنٍ في فعلٍ: أحسنتَ.
وأحسُّ بروعة الدنيا حين أقول لمبدعٍ في قولٍ: أبدعتَ.
- ٣٢: اعفُ لوجه الله، فإن لم يكن فمن أجل راحة نفسك، وسلامة قلبك.
- ٣٣: عتبتُ على بحرٍ إزميرٍ لكثرة ما ابتلع من أجساد المهاجرين..
فقال لي: ألم تقل أنت: أوقفوا هجرة السوريين!
- ٣٤: هربوا من الحرب.. وسربوا في البحر..
والحروفُ -كما ترون- واحدة: (ح ر ب).
- ٣٥: لقاءُك ينعشُ الروح.. ولا أرى من هذا النوع إلا أقلَّ القليل.
- ٣٦: يا حلّو الكلام: ما أظن الشُّكرَ اكتسبَ حلاوته إلا من منطقتك..
٣٧: لا تحزنْ ولو خسرتَ مالك إذا كنتَ ربحتَ نفسك.
- ٣٨: من أجمل ما في جهاز الحاسوب سلة المحذوفات..
ما أحوَجَ العقل الإنساني، والقلب البشري، والنفس الآدمية إلى سلةٍ مثلها!
- ٣٩: حين أشتاقُ إليك أعلمُ أنني ما زلتُ حيًّا.
- ٤٠: يا جنة في الدنيا: أعان الله آدم على فراقك وبعادك.